جولة مع المعرى فى الغفران

للأستاذة فاطمة الحبابى

أبو العلاء فى مجتمعه :

ينحدر أبو العلاء أحمد بن عبد الله ابن سليمان من أسرة عريقة فى الثقافة والمجد عرفت شعراء وفقهاء ، وقضاة ، كان (أكثر قضاة المعرفة ، وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان بن داود ابن المطهر)[1] .

كان تأثير هذه الأسرة على تكوين أبى العلاء عظيما، لا يقل عما اكتسبه من رحلاته. لقد طاف بالعواصم العلمية، وزار مكتباتها، وأخذ عمن كان بها من شيوخ أعلام ، واطلع على تآليفهم ، فأصبح لغويا بارعا وأديبا متميزا ، كما أتقن معارف عصره ، من فقه ومنطق وفلسفة. ومما يستوجب التأكيد قوة تأثير « المعرة » والمعريين فى تكوين أبى العلاء[2] . فقد كانت المعرة منذ القرن الرابع الهجرى حتى القرن السادس تعج بالقراء والمفسرين والمحدثين واللغويين والمؤرخين والشعراء والمؤلفين فى علوم مختلفة . ومما يروى : أن ثمانين شاعرا رثوا أبا العلاء يوم وفاته ، ولم يكن أحد منهم غريبا عن المعرة[3] .

لم تكن بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وحسب ، ولكن كانت كذلك ، مجمع التيارات الفكرية ، يتواجد فيها اللغوى ، والنحوى ، والفيلسوف ، والمتكلم ، والمحدث ، والمفسر ، ... على اختلاف

---

(١) سليمان بن داود هو الجد الخامس لأبى العلاء (ابن العديم الإنصاف والتحرى) .

(٢) مسقط رأس أبى العلاء (٣٦٢ هـ ٤٤٩ هـ) . تقع بين حلب وحماه .

(٣) انظر : سليم الجندى (تاريخ معرة النعمان) المعرة فى اللغة : الإثم والأذى والجناية وتلون الوجه من الغضب . والمعرة أيضا : الأرض الجرداء (ج ١ ص ٥٥) مثل هذه الأوصاف ، تنفر النفس ، وقد كان الناس يعيرون سكان المعرة كما جاء عند أبى العلاء فى دفاعه عنها :

« يعيرنا لفظ المعرة أنها ... من العر ، قوم فى العلا غرباء

وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس لا ، بل فى الرجال غباء »

(اللزوميات ، ص ٤٦ ، القاهرة ط . المحروسة ، ١٨٨١) .

نزعاتهم ومذاهبهم ، فسنحت الفرصة مواتية لأبى العلاء ليسمع كثيراً ، ويستسيغ كثيرا ، ويصقل ذهنه كثيرا . ولم يقف عند الأخذ ، بل أسهم فى مناقشات المجالس ، فذاع صيته ، والتفتت إليه أنظار الخاصة والعامة حتى أصبح محل التجلة والإكرام ، مما حرك حقد الحسدة عليه فبدأوا يحبكون له المكايد ، وينغصون عليه الحياة .

دفع الطموح وقوة الشخصية الواعية أبا العلاء إلى أن يستغل كل إمكاناته فى تحقيق أمانيه ، فاستقر رأيه على استيطان بغداد ، لكنه لم يمكث بها إلا سنتين (من ٣٩٨ إلى ٤٠٠ هـ) فحين لم يجد ماكان يتوقعه ، عاد إلى مسقط رأسه :

هكذا استخلص أبو العلاء من تطوافه تجربة مرة ومفيدة فى آن واحد ، سيكون لها التأثير العميق على اتجاهه فى باقى حياته. فكما جاء فى رسالة كتبها إلى خاله أبى القاسم :

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت ، أجمعت على انفراد يجعلنى كالظبى فى الكناس ويقطع ما بينى وبين الناس ، إلا من وصلنى الله به وصل الذراع باليد والليلة بالغد(٤) » .

ما هى أسباب مغادرة أبى العلاء بغداد ؟

علل المؤرخون ذلك بالنبأ الذى حمله إليه البريد عن مرض أمه .. إنه تعليل وجيه خصوصا وإننا نعرف مقدار تعلق أبى العلاء بأمه ، إلا أننا نرتئى سببا آخر ليس أقل احتمالا من الأول :

نفور أبى العلاء من بيئته بغداد المتأججة بالحسد تكالبا على المناصب . لعل ذلك هو ما جعل صاحبنا يختار العودة إلى المعرة لينعزل عن جو الدسائس والحسدة والمغرضين ، ويكرس جهوده للأدب والعلم ، يخدم الناس عن بعد بمعارفه وانتقاداته :

تلك صدمة ثانية كبرى يصاب بها أبو العلاء ، كان لها أكبر الوقع فى نفسه(٥) ولم يمهله الدهر ، فقد أبى إلا أن يردفها

---

(٤) انظر شاهين عطية ، رسائل أبى العلاء المعرى ، ص ٨٠ ، بيروت ١٨٩٤

انظر ، كذلك ، تعريف القدماء بأبى العلاء لمصطفى السقا وعبد الرحيم محمود ، وعبد السلام هارون ، وإبراهيم الإبيارى ، وحامد عبد المجيد تحت إشراف طه حسين ص ٩١ ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٤ .

(٥) الصدمة الأولى ، فقد بصره أثر جدرى أصابه وهو فى سن الرابعة ، (٣٦٧ هـ) ، لايميز الأشياء لصغره كما يقول عن نفسه فى رسالته إلى هبة الله بن موسى بن أبى عمران داعى الدعاة : « وقضى على وأنا ابن الأربع لا أفرق بين البازل والربع » .

(انظر سليم الجندى ، الجامع فى أخبار أبى العلاء وآثاره ، ج ٨ من ص ٦٦ إلى ص ٩٠ ، دمشق ، ١٩٦٦) .

بثالثة ، إنها نعى أمه حبيبته الكبرى والوحيدة ،اهتز لهذا الحدث كيانه ، فامتلأ وجدانه شعورا بالضياع والعزلة فى العالم ، وهجرا الحياة لفراقها فأصبح كالرضيع مرهف الشعور ، واهن القوي ، يستعجل الموت للقائها :

مضت وقد اكتهلت وخلت أنى
رضيع ما بلغت مدى الفطام

سألت متى اللقاء فقيل حتى
يقوم الهامدون من الرجـام

فليت أذين يوم الحشر نـادى
فأجهشت الرمام إلى الرمـام[٦]

لقد فقد أبو العلاء منبعا خصبا للحب الصادق الذى كان ينساب فى أعماقه ، ويخفف من وطأة عاهة العمى ، خصوصا وأنه لم يتزوج ،وطبعا لم يكن له أولاد فتصدع نزوعه إلى المناصب المرموقة وانغلقت أمامه الآفاق [٧] .

وقعت هاتان الحادثتان وأبو العلاء فى سن الأربعين ، أى فى مفترق الأعمار ، حيث تستكمل الشخصية نضجها ، وتتحدد معالم الاختيار فى الحياة ، وتبدأ المرحلة الجديدة الحاسمة فى تاريخ الإنسان

وبالفعل ، تشكل السن الأربعون حدا فاصلا بين طورين من حياة صاحبنا إذ لم يؤت الفرصة قبلُ لإظهار مدى ثقافته وأصالته : لقد أصبح من كبار الأدباء وعلّية نخبة مثقفى عصره .

انعزل أبو العلاء عن ضوضاء المجتمع وعكف فى بيته ، على الدرس والتأليف فعاش ما سماه هو نفسه ، بفترة (رهين المحابس الثلاثة) :

أرانى فى الثلاثة من سجونى
فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدى ناظري ، ولزوم بيتى
وكون النفس فى الجسد الخبيث[٨]

بيد أن خلوته لم تكن خلوة الأديرة ، إذ غدا بيته محجا لرواد العلم والأدب ، يأتون إليه كما يذهب المثقفون اليوم إلى نادٍ أدبى . فأخذ بعض الرواد يروجون آراء علائية فى شتى الميادين ، وخاصة ميدان نقد المجتمع ، والملل والنحل ، والشرائع ،فأولها بعضهم أسوأ تأويل،فرمى المفكر الرائد بالزندقة والإلحاد .

حقا اهتم أبو العلاء بأحداث المجتمع وانفعل لمشاكل الحياة العامة ، وللأوضاع

---

(٦) شروح سقط الزند ج ٤ ، ص ١٤٢ ، ط ٢ . القاهرة الدار القومية للنشر ١٩٦٤

(٧) انظر عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء :أبو العلاء المعرى : الفصل الثالث« موت الأم » من ص ١٢٩ – ١٣٨ ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

(٨) اللزوميات ، ج ٨ ، ص ٢٤٩ ، بيروت ، ١٩٦١

المجتمعية المتفاحشة ، في عهد العباسيين(٩) فأدمجها في الاهتمامات الإنسانية المصيرية. سخر من الشره العيشي على الحياة فقال :

« تعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعْـ
ـجَـبُ إلا من راغبٍ في ازدياد

كما وقف حائرا أمام تناقض الخير والشر ، ودهش لتعلق الناس بالغيبيات تعلقا يجعلهم يخاصمون من ليسوا على اعتقادهم ، كأنهم مقتنعون ، بكيفية مطلقة ، أن الحقيقة هي ما يعتقدون هم وحدهم مما كان مدعاة للصراع المذهبي وتسفيها للواقع المضطرب المخالف لحرية الفكر ، يقول :

« بـالـلاذقيـة فتنـة
مـا بين أحمـد والمسيـح
هـذا بمطـرقة يـد
قو ذا بمئـذنـة يصيـح (٩م)

* * *

ما مصير أبي العلاء في هذا الجو ؟

نسمع عما يقاسيه أدباء أحرار من محن في الكثير من البلدان ، إذا صرحوا بما لا يجاري الرأي السائد ، الرأي الرسمي ، لدرجة أن بعضهم يتسلحون بـ « التقية » أو يهجرون ميدان الكلمة .

فلنتصور مقدار شجاعة أبي العلاء ، وهو الكاتب الذي يفصله عنا ألف سنة ، أو مايقرب من الألف . يزهد في الدنيا ، في أموالها وجاهها ، ومغرياتها زهد المقتنع بصواب الاتجاه والمذهب . لقد ترك الدنيا (الدنية)(١٠). كابتا ميوله ليخلص للرأي الصريح ويرضي الضمير النظيف .

هكذا تقبل أبو العلاء الحرمان لأنه اختار موقفا معينا من الوجود ومن المجتمع ، فجاءت آثاره تعبيرا صريحا عن ذلك الموقف ، وشهادة على تعلقه بحرية الرأي ، إلى أن مات مصون الكرامة ، لم يستغل ، كما فعل الخاصة من معاصريه ، جهل العامة ويستبز أموالهم . كما لم يسمح لنفسه مثلهم بالتلاعب بالدين ولا بتسخير العلم لتحقيق أغراض شخصية . كانت عزلته عزلة المتعال الذي يراقب عصره وينقده دون أن يدنس يديه . فلم يكن شاعر القصور ، ولا كاتب المناسبات ، ولا متجرا بالأدب ، بل على العكس قد سخر من مرتزقة الأدب . فلنستمع إلى الحوار الذي جاء في رسالة الغفران بين ابن القارح وشيخ الجن ، يصرح الأول :

« لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل وإنما كنت

---

(٩) انظر الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ، ج ١ ، من ص ١٠١ إلى ١١٩

(٩ م) مثل هذه الأشعار يشك في نسبتها إلى أبي العلاء لأنها لاتوجد في روايته أو كتبه الأخرى ومن المعروف أن شعرا كثيرا قيل على لسان أبي العلاء من قبل خصومه للإيقاع به .

(١٠) يتردد وصف الدنيا بنفس العبارة العديد من المرات في رسالة الغفران ، انظر مثلا ص ١٤٣ – ١٨١ – ٣٦٢ – ٣٧٥ – ٣٩٥) .

أتقرب به إلى الرؤساء ، فأحتلب منهم دربَكئ ، وأجهد أخلاف مصور [10] ، ولست بموفق أن تركت لذات الجنة وأقبلت أنتسخ آداب الجن ومعى من الأدب ماهو كاف ، لاسيما وقد شاع النسيان فى أهل أدب الجنة ، فصرت من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظا ، ولله الحمد » [11] .

وفى صفحة أخرى ، ينطلق هذا السهم النافذ على لسان إبليس فى حديث إلى ابن القارح :

« من الرجل ؟

فيقول :

أنا فلان بن فلان ، من أهل (حلب) ، كانت صناعتى الأدب ، أتقرب به إلى الملوك !

فيقول :

بئس الصناعة ! إنها تهب غفة من العيش لايتسع بها العيال ، وإنها لمزلة بالقدم ، وكم هلكت مثلك ! [12] » .

خاتمة المطاف :

عاش أبو العلاء بائسا خاضعا للواقع ، وأدى ببؤسه ضريبة رفضه الاسترزاق بالدين والأدب والعلم . فاضطر إلى خلوة بداره فى معرة النعمان ، منعزلا عن الناس والمزاحمات اليومية ، بما فيها من تحمس للحياة ومن شقاء . بيد أنه انعزل وبين جانبيه وجدان ثرى ، وفكر ثاقب انبثقت عنهما تأملات شاملة.

يتجلى كل ذلك فى رسالة الغفران ، الأثر الذى يعد من روائع الآداب العالمية إنها تضم حصيلة أوضاع أبى العلاء ومواقفه ممزوجة بانعكاس ما أحدثت من انفعالات مختلفة : تجربة العزلة ، ومعاناة العمى ، وتضارب نور البصيرة المتوقدة مع ظلام عالم العاهة . فالرحلة إلى عالم مابعد الموت ،التى هى محور رسالة الغفران، محاولة لاشعورية وطبيعية من بعض الوجوه إنها انتقال من نظرة محدودة الأفق إلى نظرة ذات آفاق بلا حدود ، و (الهجرة) وجدانية وذهنية من دنيا الظلام والظلم ، دنيا المتناقضات والمعايير المزيفة، إلى عالم بلا انحرافات وبلا تزوير، عالم يشتاق إليه أبو العلاء المحروم حقا .

إلا أن عالم ما بعد الموت ليس ضروريا أن يكون عالم الصفاء والسعادة ، وكأنه (مدينة فاضلة) أو (جمهورية المثل) ، بل إنه عالم ، حسب ما يراه أبو العلاء نفسه ، لا يخلو ، هو أيضا ، من هموم ومخاوف ومناقشات ومزاحمات كما تسجله محاورات ابن القارح .

(١٠م) البكىء : الناقة البخيلة بلبنها ، والمصور : البطيئة اللبن .

(١١) ص ٢٩٢ ، ٢٩٣

(١٢) ص ٣٠٩

المعرى بين الناصرين والمنتقدين :

يمكن اعتبار رسالة الغفران منبعا أساسيا للكثير من التأويلات المتناقضة التى انبنى عليها تصور الناس لشخصية أبى العلاء المعرى وما صاحب ذلك من اتهام فى معتقده أو تبرىء وتقدير لإيمانه وعمله(١٣) . فمثلا هذا سليم الجندى ينقل عن البطليوسى أن أباالعلاء كان متدينا كثير الصيام والصدقة تسمع له بالليل هينة لا تفهم (. . .) وكان ذاعفة ونزاهة نفس(١٤) وذاك لويس عوض يرميه بضروب الزندقة والمروق(١٥) .

إننا ، هنا لا نقصد أن ندخل المعمعة مع الذين يتعصبون لأبى العلاء فيتصدون للدفاع عن نظرياته حتى يغلق عليهم دفاعهم العاطفى مسالك البحث الموضوعى(١٦) ، كما إننا لن ننزلق مع الذين تناسوا فضله على الثقافه العربية فبخسوه حقه . ولكن سنعمل على دراسة مضامين الغفران بالقدر الذى يسمح لنا بمعرفة أسباب تميزها بلغة خاصة ، وتراكيب متميزة ، دون التصدى لتقييم مضامينها ، لأن ذلك يخرجنا عن الهدف الذى نسعى إليه .

مضمون رسالة الغفران :

يقف الدارس لرسالة الغفران مندهشا أمام الموضوعات المتنوعة التى تزخر بها الرسالة ، معجبا بالإطار الفنى الذى صاغ فيه أبوالعلاء تلك المواضيع البالغة التعقيد ، إذ ذاك تلح عليه أسئلة شتى يبقى معها فى حيرة ، ويصعب عليه التسليم بكون الغفران مجرد جواب عن رسالة تلقاها المؤلف من ابن القارح . إذ لا يتوقع أن ينتج عن الرد على نقط محدودة فى صفحات معدودة ، جواب من مستوى (رسالة الغفران) الكثيرة الصفحات ، العميقة المضمون ، المتشعبة الجواب .

فما الأسباب التى حفزت أبا العلاء على اختيار ذلك النهج ؟

سؤال آخر تطرحه الرسالة ، شكلا ومضمونا :

ما وضع رسالة الغفران بين آثار أبى العلاء المعرى الزاخرة ؟

نعنى ماذا يميزها عن غيرها من الرسائل والمؤلفات العلائية ؟

---

(١٣) انظر طه حسين ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، المقالة الثالثة ، ص ١٥٩ ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٨

(١٤) الجامع فى أخبار أبى العلاء وآثاره .

(١٥) لويس عوض ، على هامش الغفران ، دار الهلال ، ١٩٦٦
تولى الرد على لويس عوض وتخطىء آرائه محمود محمد شاكر فى كتابه أباطيل وأسمار فى الرد على هامش الغفران ط٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(١٦) انظر مثلا ، أحمد تيمور : أبو العلاء المعرى نسبه وأخباره ، وشعره ، ومعتقده ، القاهرة ١٩٧٠

عن هذين السؤالين ، وما بهما من استفسارات ضمنية ، ستجيب الصفحات التالية :

رسالة ابن القارح :

وردت على أبي العلاء رسالة من أديب من أدباء حلب ، يدعى أبا الحسن على ابن منصور ويلقب بدوخله ، ويعرف بابن القارح (٣٥١–٤٢٣ ﻫ) . غادر هذا الأديب حلب مدة ، ثم وردها ، فشعر بغربة لفقدان المعرفة والجار :

« وردت « حلب» ظاهرها ، حماها الله وحرسها ، بعد أن منيت بربضها (...) فلما دخلتها ، وبعد لم تستقربي الدار ، وقد ذكرتها لفقدان معرفة وجار ، أنشدتها باكيا :

إذا زرت أرضا بعد طول اجتنابها

فقدت حبيبا والبلاد كما هيا) (١٧)

ومن قبيل المصادفات أن أبا الفرج الزهرجى كاتب نصر الدولة، كتب رسالة وكلف ابن القارح بإيصالها إليه ، فسرقت منه ، فوجدها ابن القارح فرصة ، ليكتب إلى أبي العلاء ، ليعتذر إليه ويبث أحزانه :

« كان (أبو الفرج الزهرجى) كاتب حضرة نصر الدولة –أدام الله حراسته– كتب رسالة إليّ أعطانيها ، ورسالة إليه ، أدام تأييده ، استودعنيها ، وسألني إيصالها إلى جليل حضرته ، وأكون نافثها لا باعثها ومعجلها لا مؤجلها ، فسرق عديلى رحلا لى الرسالة فيه ، فكتبت هذه الرسالة أشكو أمورى ، وأبث شقورى ، وأطلعه طالع عُجَرى ونُجَرى ، وما لقيت فى سفرى من أقوام يدعون العلم والأدب ، أدب النفس لا أدب الدرس ، وهم أصفار منهما جميعا ، ولهم تصحيفات كنت إذا رددتها عليهم ، نسبوا التصحيف إليّ وصاروا إلبا على » (١٨) .

بدأ ابن القارح رسالته بالحمد والثناء على نعم الله ، وبالتعبير عن شوقه إلى أبي العلاء وحنينه إلى لقائه حنين :

«الظمآن إلى الماء ، والخائف إلى الأمن . . . »(١٩) .

ثم تصدى إلى انتقادأخلاق بعض الشعراء والأدباء ممن كانوا يتهاونون فى الدين ويدمنون شرب الخمر وقول الغزل، كالمتنبي ،وبشار ،وصالح بن عبد القدوس

---

(١٧) رسالة الغفران ، ص ٢٥

(١٨) رسالة الغفران ، ص ٢٦ ، ٢٧

الشقور : الحاجة ، والهم ، واحده شقر (بفتح فسكون) .

العجر والبجر : العيوب والهموم .

(١٩) رسالة الغفران ، ص ٢٢

والصـــاديقى ، والوليــــد بن يـــزيد ابن عبد الملك ، والحلاج ، وابن الراوندى وابن الرومى ، وأبى تمام ، والمازيار . وقد كان هؤلاء وأمثالهم ، فى نظره ، لا محالة من الخالدين فى جهنم .

وبعد أن تعرض ابن القارح لهؤلاء القوم المذنبين ، أخذ فى استفسار أبى العلاء عن الزندقة ، والتصوف ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، وأمور الدين .

ثم انتقل إلى التشكى من الزمان وأهله قبل أن يعمد إلى مدح مخاطبه والثناء على عمله وفضله وعلى ما سمعه من رسائله . وختم بذكر طائفة من أنبائه الخاصة : لقد تغيرت حاله لكبر سنه ، وقصرت قدرته عن الكتابة والدرس ، وعانى الكثير من ابنة أخته التى سرقت دنانيره . وأخيرا اعتذر عما فى رسالته تلك من خطل أو زلل ، واستعطف أبا العلاء بأن لا يبخل عليه بالجواب .

ماذا كان الجواب :

من هـــذا المنبثق ، تفجرت قريحة أبى العلاء ، فسبلك عالما أطره الجنة والنار ، وسكانه الأدباء والشعراء والنحويون واللغويون .

أول ما يفاجئنا هـــو أن أبا العلاء يبدو متفائلا (أو على الأقل أكثر تفاؤلا من مراسله ابن القارح) ، نعم ، جاءت رسالة الغفران توقع على نغمة العفو الإلهى والمغفرة . وتعلن عن أن كثيراً من الشعراء الجاهلين والمخضرمين والإسلاميين قد ينعمون بالجنة ، خلاف ما يصرح به بعض المتزمتين من الفقهاء إذ يحشرونهم ، فى جهنم ، دونما رحمة أو تردد . فقد يكون أكثرهم من أهل الجنة لصدق إيمانهم بالله ، أو لما قدمت يداهم من معروف بنية خالصة ، وإن صدرت عنهم أعمال غير صالحة . فمشاهدة الظاهر لا تكفى للحكم على الناس بالنــــار ، واتهامهم بالإلحاد والزندقة .

ولتبيان ذلك ، كان لزامـــا على أبى العلاء أن يتخذ موقفا من الفقهاء المتعنتين الذين يتهمون الناس فى سلوكهم وأعراضهم وإيمانهم ، ويضيقون النطاق على حرية الرأى ، فلنتأمل مثلا ما ساقه على لسان « حسان ابن ثابت » (٢٠) تعليقا على قصيدته التى يمدح فيها الرسول ﷺ ، يقول :

« ويمر (حسان بن ثابت) فيقولون : أهلا أبا عبد الرحمن ألا تحدث معنا ساعة؟ » فإذا جلس إليهم قالوا :

« أين هـــذه المشروبة من سبيئتك التى ذكرتها فى قولك :

---

(٢٠) شاعر مخضرم ، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، مات فى خلافة معاوية .

كأن سبيئة من بيت راس
يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها ، أو طعم غض
من التفاح هصره احتناء
على فيها إذا ما الليل قلت
كواكبه ومال بها الغطاء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما
فهن لطيب الراح الفداء

ويحك : أما استحييت أن تذكر مثل هذا فى مدحتك رسول الله ﷺ ؟ فيقول : « إنه كان أسجح خلقا مما تظنون ، ولم أقل إلا خيرا ، لم أذكر أنى شربت خمرا ، ولا ركبت مما حُظِر أمرا ، وإنما وصفت ريق امرأة ، يجوز أن يكون حيلاًلى ، ويمكن أن أقوله على الظن . وقد شفع صلى الله عليه وسلم فى (أبى بصير) بعد ماتهكم فى مواطن كثيرة ، وزعم أنه مستر(٢١) مفتريا أو ليس بمفتر . وما سمع بأكرم منــه ﷺ : لقد أفكت فجلدنى مع (مِسطح) ، ثم وهب لى (أخت مارية) فولدت لى (عبد الرحمن) وهى خالة ولده إبراهيم » (٢٢) .

هكذا يعلنها أبو العلاء حربا شعواء على أولئك الجامدين ، أحيانا بسخرية مرة وأحيانا بشىء من المرح يقتضيه التهكم(٢٣) .

* * *

إن السبب الظاهر لتحرير رسالة الغفران هو الإجابة على رسالة ابن القارح ، غير أن أبا العلاء كان يرمى إلى أبعد من ذلك ، فلو كان يود مجرد الجواب لفعل فى سطور أو صفحات قليلة ، ثم إن المستقرئ لرسالة ابن القــارح لا يعثر فيها على ما يستدعى الحديث عن الآخرة فى إطار خيالى . إذن رسالة الغفران ليست جوابا بقدر ما هى تحفة فنية ولغوية أملاها أبو العلاء منتهزا فرصة خطاب ابن القارح ، فانساق للمباهاة بالبراعة اللغوية ووفرة الثقافة الأدبية .
وإن التباهى بالمعرفة كان عادة متبعة فى عصره ، وكثيرا ما يظهر ذلك فى فن المراسلة الذى شاع فى القرن الرابع للهجرة ، حتى ان كل الكتاب تطرقوا لهذا الفن ، فألفوا فيه الرسائل المختلفة ، جاءت على نوعين :

١ ـ الرسائل القصار ، كرسائل الخوارزمى(٢٤)

---

(٢١) تتساءل بنت الشاطىء ، فيما إذا كانت من الاستراء بمعنى السرى أى السير ليلا ، اعتمادا على ما جاء فى اللسان من استرى كاسرى ، ولكننا لاندرى ما العلاقة التى تتبينها المحققة بين السير فى الليل وسياق الكلام ، ولعل الأمر يتعلق بجارية زعم أنه تسراها كما يحتمل السياق .
مسطح : ابن أثاثه بن عباد بن عبد المطلب شهد بدرا ، ثم خاض فى حديث الإفك ، فجلده الرسول ﷺ توفى سنة ٣٤ ﻫ .
(٢٢) رسالة الغفران : ص ٢٣٤ ، انظر كذلك حوار ابن القارح مع عبيد بن الأبرص ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، وأيضا ، حديث الأعشى وكيف كانت سلامته من النار ، ص ١٧٧ ، ١٧٨
(٢٣) انظر ، تجديد ذكرى أبى العلاء ، « السخرية » ، ص ٢٢١
(٢٤) الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن موسى ، توفى ببغداد ٢٣٢ ﻫ / ٨٤٦ م

٢ - الرسائل الإخوانية الطوال تظهر البراعة الأدبية والخصائص الفنية للأسلوب وتمتاز بإتقان الصنعة وإحكام النسج وقلة السجع المتكلف، والحرص على سلامة المعنى وتنسيق العرض، بيد أن رسالة الغفران تتعدى فى مضمونها شخصية المرسل إليه، وإذ ترمى إلى شيء من الشمول لأنها رسالة لا فى معنى مراسلة correspondanse

أى نوع من «الرسائل الإخوانية» المعروفة آنذاك، وحسب، وليست رسائل المجاملات أو التراسل بغية قضاء حاجة من حاجات الحياة اليومية. وإنما هى رسالة من نوع خاص كما سنرى، فنحن، وإن كنا نطمئن إلى ما تراه بنت الشاطىء من وضع الغفران فى ديوان الرسائل الفنية الطوال التى ورثها القرن الخامس من سابقه [٢٥]، إلا أننا نرى أنها بالإضافة إلى ذلك، تعتبر رسالة ترمى إلى تبليغ مضمون «مذهبى». وقد اعتمد أسلوبا «لغويا» وأدبيا، أراد أبو العلاء أن ينشر ذلك المضمون بين الناس جميعا، وفى نفس الوقت، أن يظهر لهم مدى براعته الأدبية ومعرفته اللغوية.

إن الغفران «رسالة» فى المعنى الذى نطلق عليه اليوم «أطروحة» أى تعبير عن رؤية خاصة شعر المعرى بوجوب إيصالها إلى الغير وتعميمها بين الناس. إنها تجارب رجل عانى الحياة طويلا. ويظهر أن رسالة الغفران أمليت، نحو سنة ٤٢٤ هـ، وأبو العلاء فى السبعين من العمر، أى فى سن بلغ فيه تأمله درجة اكتمال النضج واختمرت فيه معرفته بالناس وبالحياة. لقد عكف عن إملائها الأعوام الطوال، راصدا خواطره وهواجسه، سابحاً فى أحلامه وتأملاته. ومن ثمة، كما تقول بنت الشاطىء، حملت الرسالة «طابع التأمل» وجمعت ما بين الاطلاع والتأمل والإخلاص للفن، وحرية التفكير وتصوير الشهوات المكبوتة فى تفنن مثير [٢٦].

عزاء عن الحرمان :

ميزة مضمون رسالة الغفران هى هذا النزوع إلى الشمول مع براعة محكمة للتعبير عن الملاذ الحسية وعلى تنوع أشكالها، مما يدل على حرمان فى هذه الدنيا، انتقل إلى الإشباع بالتسامى subbmation sublimatia نعنى أن أبا العلاء قام بعطية إعلاء للطاقات الغريزية من مستوى الشهوة إلى إشباعها بتعويضات فكرية وخيالية فى العالم الآخر.

---

(٢٥) الغفران لأبى العلاء المعرى، ص ١٩٣ القاهرة ١٩٦٢

(٢٦) المصدر السابق ص ٥٤، ٥٥

عرف أبو العلاء حياة العزلة والحرمان فاضطر إلى كبت ميوله وإلى الزهد فى الدنيا ، فكما يقول طه حسين : « فالذين يظنون به الزهـــد مخطئون . فليس هو زاهد ولكنه رجل عاجز عن تحقيق آماله ، قد راض الآمال فامتنعت عليه ولم تذعن له، وأدركه اليأس من انقيادها، فخلى بينها وبين الشموس ، وأعرض عن لذاته، لا رغبة عنها بل قصورا وعجزا (...) فهو إذن ساخط على الدنيا لأنها أعجزته لا لأنه زهد فيها وفلسفته ، إذن ، كما قلت فى أول هذا الحديث، فلسفة المحنق المغيض لا فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها أو قل إنها فلسفة المرتفع عن نعيم الحياة ولذاتها ، لا لأنه أراد أن يرتفع بل لأنه أكره نفسه على هذا الارتفاع .طمعه أكثر من طاقته، فهو يؤثر أن يفقد كل شئ على أن يرتفع ببعض اللاشيء (. . .) أما أنا فأخصه بالرحمة والعطف ، لأنه أحب الدنيا وأعرض عنها ، ورغب فى اللذات ثم صدف عنها ، ولأنه حين أعرض عن الدنيا وصدف عن اللذات لم يضمر لأحد شرا ، ولم يحسد الناس على ما أصابوا منها ، وإنما رضى عن الحرمان واطمأنت نفسه إليه وعاش وادعا هادئا لا يؤذى أحدا ولا يكاد أحد يؤذيه(٢٧)

وهكذا عكف أبو العلاء على التأمل والإملاء، فى صبر مناضل وصبر نبيل مصدوم ، لا يرضى الهزيمة أمام أحوال الحياة ولكى يحافظ على كرامته، رغم الشعور بالحرمان، انصرف برغباته المكبوتة إلى التأمل الذى يتقبل الواقع الحزين ، ويرفض العبث ، ويزهد فى الدنيا لأنها زهدت فيه . ولكن ما تحت الشعور يطفو بمكبوته ، فتظهر للعيان فى رحاب العالم الآخر .

هناك ، لا يجرؤ أبو العلاء على أن يتمثل جنة بها عمى ، بل تراه يتسلى عن لوعة حرمانه ويعلل نفسه بهذه الرحلة حيث يطوف فى الجنة بعينين مبصرتين أقوى ما يكون الإبصار بالجنة تختفى كل العاهات(٢٨) فكل من أصيب فى الدنيا بشئ من ذلك رفع عنه فى الآخرة ، بل لا يكفى أن يصبح الأعمى بصيرا والأعشى أحور والهرم شابا(٢٩) والسوداء بيضاء ، وإنما يعوض الممتحن عن محنه تعويضاً لا يتمناه إلا من

---

(٢٧) مع أبى العلاء فى سجنه ، ص ١٩٠ ، القاهرة ، ٦٣ ص ١٩ .

(٢٨) يقول أبو العلاء على لسان عدى :
« ويحك أما علمت أن الجنة لا يرهب لديها السقم ولا تنزل بسكانها النقم (ص ١٩١) »

(٢٩) انظر حوار ابن القارح مع الأعشى :
«فليلتفت إليه الشيخ هشا بشا مرتاحا، فاذا هو بشاب غرانق، غبر فى النعيم المفانق وقد صار عشاه حورا معروفا ، وإنحاء ظهره قواما موصوفا(ص ١٧٧ ، ١٧٨) انظر كذلك ، حوار ابن القارح مع حوييد بن ثور (ص ٢٦٣) .

عانى الحرمان وامتحن بعاهة ، أو كما تقول بنت الشاطئ : لا يقترح مثله سوى المبتلى المحروم [٣٠] فأشد أهل الجنة بصراً هم الذين حرموا نعمة الإبصار فى الدنيا وأجملهم عيونا هم عوران قيس ، وأطيب نسائها نشراً امرأة طلقت لرائحة كرهها زوجها من فيها[٣١] وأنصعهن بياضا جارية سوداء كانت تخدم فى دار العلم ببغداد[٣٢]

وهناك فى الجنة حيث الجموع الغفيرة من الشعراء والكتاب ، تكثر النساء والحوارى[٣٣] رغم ما نعرف عن أبى العلاء من زهد وانصراف عنهن .

كما نجد محاورى ابن القارح ، فى العالم الآخر ، يتساقون كؤوسا عسجدية من الخمر[٣٤] ويتناولون مالذ وطاب من الأطعمة [٣٥] .

هكذا شفى أبو العلاء ، عن طريق الإعلاء ، غليله ، وفجر بالتصور والتمثيل ما حرم منه فى الدنيا .

اصالة رسالة الغفران :

للمضمون حظ وافر فيما يمنى للغفران من أصالة .

فلا تعثر فى الآداب العربية ، قبل أبى العلاء على تصـــور ما بعــــد الموت وجعله موضوع بناءأ دبى حقا ، إن القرآن الكريم يتحدث عن الجنة والنار ، والصراط والحشر ، والنشر ، ولكن فى نظرة وعد ووعيد ، وفى معرض الدعـــوة إلى الإيمان بالله خالق الدنيا والآخرة ، أما المعرى ، فيسبك رواية بأبطال وديكور وإخراج وحوار .

قد يقال بأن أبا حامد الغزالى ، مثلا قد دعا إلى عالم مافوق المحسوس ، عالم ليس هو عالم اليقظة ولا عالم الحلم ، ويتصعد إليه المرء بالحدس والذوق[٣٦] .

على هذا ، نجيب بأن الرجلين لا يرميان إلى نفس القصد ، فعالم الصوفى خاص بالأقلية من المحظوظين ويتنافى مع عالمنا العادى اليومى ، ولا يرمى إلى انتقاد مجتمعى[٣٧]

---

(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٣١) انظر ، رسالة الغفران ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٣٢) يقول أبو العلاء على لسان توفيق السوداء :

« أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى (دار العلم ببغداد) (...) فيقول (أبو القارح) : لا إله إلا الله لقد كنت سوداء فصرت أنصع من الكافور » (ص ٢٨٧) .

(٣٣) انظر مثلا : مأدبة فى الجنان ، من ص ٢٦٨ إلى ٢٨١ .

(٣٤) انظر الحديث عن الحور العين ، مثلا ص ٢١٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧

(٣٥) مشاهد للمنادمة ، ص ٢٠٣ ، ٢٣٣ .

(٣٦) يقول أبو حامد الغزالى : «فن لم يبلغ الطور الذى وراء العقل ، لا تنفتح له العين التى ينكشف منها الغيب الذى لا يدركه إلا الخواص» انظر المنقذ من الضلال ص ، ١٩٥ ، ط ٣٠ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، قام بنشر هذه الطبعة عبد الحليم محمود) .

(٣٧) انظر : هنرى برجسون ، منبعا الأخلاق والدين .

«أما عالم الغفران» فيعتمد على نفس قوى من التخيل والمعرفة بالواقع مع اطلاع على اللغة العربية ودقائقها وعلى تاريخ الأدب، والمذاهب والأديان . .

وحجتنا على ذلك واضحة تشهد بها مشاهد الغفران، جنة ونارا ، فما هو التصور الديني للآخرة عند أبي العلاء ؟

والغفران رحلة «روائية» طويلة المدى بعيدة المغزى ، تتجه إلى كل الناس ، على اختلاف الأجيال ، إلى الصوفي والشيعي، إلى المتدين والزنديق ، إنها وصف ونقد لا تبشير ووعظ .

«آخرة» أبي العلاء عالم مثير ، عالم يخضع لتطورات ، تأبى إلا أن تخلق عالما أخرويا من نوع خاص يشبع فيه المحرومون حاجتهم الملحة إلى ألوان من النعيم يفتقدونها في هذه الدنيا ، ويروى ظمأ فضوله الفكرى كل المولعين بالغريب في اللغة والدخيل والمهجور ، ويشفى غليله جمع المغرمين بالصناعة الفنية الأدبية ، ويفجر كبته كل من صدمت رغبة من رغباته في عالمنا ، عالم الصراع والأتعاب . إن عالم الخيال يحرر ، ولو مؤقتا ، من الأنظمة التعسفية التي تفرضها العقلانية المجمدة ، ويصعد الشهوات المغمورة المباح منها وغير المباح (٣٨) :

جل أقوام عالم الغفران من الأدباء والشعراء وأغلبيتهم من الطبقة التي عرفت الحرمان واستكانت إليه على مضض ، فالمتنبي ذاق مرارة اللعبة السياسية ، ولم يستطع إلجام كبريائه المجروح ، وامرؤ القيس عرف الخمر ولم يعرف الأمر وكم بكت الخنساء ، لقد تجرعت المأساة ، وزرعت الكآبة حولها (٣٩) من أولى من هؤلاء بالتمتع بالنعيم في الدار الأخرى ؟

في جنة عالم الغفران (جنة المحرومين في هذه الدنيا)، ومنهم أبو العلاء نفسه ، نجد كل الطيبات من الرزق ، أطعمة شهية وخمر ونساء ، . . إنه عالم الخيرات والتسليات المتنوعة من نزهة وصيد ورقص (٤٠)

هذا ما خص به المعرى المحرومين ، أما القادة السياسيون ، وأصحاب العروش وأبناء الأكاسرة ونساؤهم فيظهرهم أبو العلاء يعانون أهوال يوم الحساب والعقاب :

«تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والنسوة ذوات التيجان يصرن بألسنة من الوقود، فتأخذهم في فروعهن وأجسادهن، فيصحن: هل من فداء ؟ هل من عذر يقام ؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغون في سلاسل النار (٤١).

(٣٨) انظر مثلا ، حوار إبليس مع ابن القارح حول « الولدان المخلدون » ص ٣٠٩

(٣٩) انظر ، الرسالة ، ص ٣٠٨

(٤٠) انظر بعض مشاهد الجنة من ص ٢٦٨ الى ٢٨٤

(٤١) ص ٢٤٧ . يصرن : من صار الشيء وأصاره : أماله . يتضاغون : يتصايحون

تأثير عصر المعرى على الرسالة :

كان العالم الإسلامى ، فى القرن الخامس الهجرى ، امبراطورية متشققة الكلمة منهارة سياسيا (٤٢) ، لم يعد الحكم المركزى يوجه السياسة العامة من العاصمة بغداد ، بعد أن تمردت الأقاليم (حلب والقاهرة وقرطبة ، . . .) ، فكان رد الفعل ظاهرا فى ميدان الاقتصاد ، وفى التناحر الطائفى .

نشأ أبو العلاء فى هذا الجو الملىء بالفوضى ، فشاهد تصدعا شاملا ، وأخلاقا غير سوية ، لا نظام ولا استقرار ، وبالتالى لا عدل ولا مساواة ولا استحقاق ، شعوبية وعصبيات قبلية ، وتدجيل ونفاق واستغلال للدين ، فلم لا يتشاءم ضمير واع ، كضمير أبى العلاء ؟

المعرى متشائم ولكنه غير يائس كامل اليأس . لذا انعزل عن الناس ، أفرادا ، كما انعزل عن عاداتهم ومعاملاتهم ، ولم يقاطعهم مجتمعات فالأجيال تتصل تاريخيا وتخضع لتحول دائم ، فلو لم يكن لأبى العلاء أمل (ولو ضئيلا) فى قابلية الإنسانية للتغير والإصلاح لما انتقدها ، ولابتلع مرارته وسكت ، دون أن يتهكم ويسخر من المتكلمين ، والشيعة ، والإمامية ، والصوفية ، والفرس والهنود ؛ لذا التزم بالقيام بواجبه ولم يكتف بإصدار الأحكام اعتباطا بل يوضح الأخطاء بأمثلة يحللها ثم يبنى عليها أحكامه ؛ فلنتسمع حديثه عن الحلولية ورأيه فيها ، يقول : والحلولية قريبة من مذهب التناسخ ، وحدثت عن رجل من رؤساء المنجمين من أهل (حران) أقام فى بلدنا زمانا ، فخرج مرة مع قوم يتنزهون فمروا بثور يكرب ، فقال لأصحابه : لا أشك فى أن هذا الثور رجل كان يعرف « بخلف » بحران . وجعل يصيح به : يا « خلف » ويتفق أن يخور ذلك الثور فيقول لأصحابه : ألا ترون إلى صحة ما خبرتكم به ؟

« وحكى لى عن رجل آخر ممن يقول بالتناسخ أنه قال : رأيت فى النوم أبى وهو يقول : يا بنى ، إن روحى قد نقلت إلى جمل أعور فى قطار فلان ، وإنى قد اشتهيت بطيخة قال لى : فأخذت البطيخة وسألت عن ذلك القطار فوجدت فيه جملا أعور ، فدنوت منه بالبطيخة ، فأخذها أخذ مريد مشته .

« أفلا يرى مولاى الشيخ إلى ما رمى به هذا البشر من سوء التمييز وتحيزهم إلى ما يمتنع من التحييز » (٤٣)

كما يمكن أن نتأمل موقف أبى العلاء من الصوفية ، من خلال حديثه عن الحلاج (٤٤)

---

(٤٢) الجامع فى أخبار أبى العلاء وآثاره من ص ٧١ إلى ١٠٠ .
(٤٣) رسالة الغفران ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .
(٤٤) رسالة الغفران ، ص ٤٦٣

إنه يعرف بحق أحوال المنافقين والمتحزبين وتصرفاتهم ، فكل مذهب يعمل أصحابه على نشره بشتى الوسائل ، فيتردد صدى ذلك كله فى المجتمع .

« الإمامية تقربوا بالتعفير فعده بعض المتدينة ذنباً ليس بغفير؟ (...)وكم متظاهر باعتزال وهو مع المخالف فى نزال»(٤٥).

حقا إن أبا العلاء متشائم ، لكن كما أن الشك نوعان: شك لذاته (كما هو الحال عند الارتيابيين المنكرين لكل شيء ، وعند أبي حامد الغزالى الذى يرى ، فى كتابه المنقذ من الضلال ، أن عالم اليقظة والعقل والحواس لا يمثل الحقيقة ، وشك منهجي (كما عند ديكارت فى « حديث المنهج(٤٦) » نقول :

إن التشاؤم كذلك ، نوعان : تشاؤم ناشىء عـــن بعض الناس واليأس منهم ، مثل تشاؤم بطل (موليير) فى (الميزانطروب)(٤٧) ، وتشاؤم لا يصاحبه يأس كتشاؤم المعرى الذى لا يقصر جهـــدا فى أن يفضح ما فى الكون من سواد واعوجاج ، مستعملا طريقة النقد المهاجم أحيانا ، وطريقة السخرية ، أحيانا أخرى ، كما يفعل سقراط فى محاوراته .

. رسالة الغفران : من الآثار التى تبقت حية ، من القرن الخامس الهجرى حتى يومنا . إنها تمثل جانبا خاصا فى الآداب العربية . فلا نعرف للمتقدمين رسالة تشبهها ، أسلوبا وسعة خيال ، كما لا نعرف لما تزخر به من تحقيقات لغوية ونحوية ومناقشات فكرية مثيلاً . إنها صنف جديد ، يمكن تسميته بـ (الأدب الفكرى) (أو الرواية ــ الأطروحة) (Roman thése) إن جاز هذا التعبير .

مثل رسالة الغفران كمثل القصة الفلسفية حى بن يقظان لابن طفيل ، من بعض الجوانب ، لكلتيهما أصالة تميزها عن بقية الأنواع الأدبية . طبعاً ، كل موضوع جديد يأتى بمفاهيم جديدة ، وهذه تقتضى هى الأخرى أسلوبا جديدا ولغة جديدة لتساير أصالة المعانى ، فالذى يبدع لغويا وحسب لا يعطى إلا رنات صوتية(٤٨) فاللغة إنما هى شكل تتقمصه الأفكار ، فلا أصالة ولا إبداع فى الأسلوب إذا كانت الأفكار فقيرة ، وإن أكبر ما يميز الغفران

(٤٥) رسالة الغفران ص ٤٦٥

(٤٦) نقله إلى العربية جميل طيبيا ، تحت عنوان مقالة المنهج. René descartes, déscouss de la méthode.

(٤٧) تمثيلية لموليير ، الكاتب المسرحى الفرنسى Joliere. Le opisantrope (القرن ١٧) اختلف النقاد ومؤرخو الآداب حول نوعيتها : هل هى مأساة أم ملهاة .

(٤٨) هذا إذا فرضنا إمكانية وجود إبداع فنى لغوى مجرد عن المضمون .

هو أنها أتت بنوع جديد ، من الأدب اقتضى قوالب لغوية جديدة، انصهر فيها فكان لها أثر على نمو الأسلوب الفنى ، وعلى تكييف الذوق لدى الخاصة من المتأدبين ؟

ومن أهداف هذه الدراسة أن تبرز ما فى طيات الغفران من تلميحات فنية وظواهر لغوية تمكن متتبع تطور اللغة العربية من إضافة عناصر جديدة إلى ملف تاريخ هذه اللغة .

فى الرسلة لمحات جميلة تعين على تصور مدى نجاح أبى العلاء فى استحداث لغة ذات قدرة فنية لا تتحرج من استعمال المعروف إلى جانب المستحدث الطريف ، فلأبى العلاء تعابير (علائية)، لا تخرج عن نطاق اللغة العربية، ولكنها لا تقف عند الحدود التقليدية ، إنه مبتكر، ولابد للمبتكر من أن تنصب جهوده أيضاً ، على الوسائل التعبيرية، وليس هذا تنكرا منه للغة القدامى ،أو رفضاً للارتواء من المنابيع الصافية للسليقة العربية بل على العكس كان أبو العلاء يحسن الرقص على النغمة القديمة الأصيلة ، وعلى النغمة الشخصية التى هى من أصالته .

تأثر المعرى بمن سبقه ، كما لاشك أنه أثر، بدوره ، فى أسلوب الخلف. إلا أننا من الآن نؤكد أن المعرى كان واعيا للمهمة التى التزم بها . إنه ، كما قلنا ، حامل رسالة فكرية ثقافية ليست فى متناول العامة ، فكان طبيعيا أن يجىء أسلوبه، على مستوى المهمة، خاصاً بالنخبة. ذاك ما يفسر ما بأسلوب الغفران من قوة لا تخلو من تعقيد فى بعض المواقف ، ولقد سعى المعرى إلى التبليغ بقدر ما سعى إلى تنميق اللفظ والتلوين الموسيقى الذى يرمى إلى الزخرفة والموسيقى فى حد ذاتهما أهى « أرستقراطية »فكرية ؟

للمعرى قدرة على التمييز بالأسلوب الوعر الممتنع توازى قدرته على استعمال التعبير البسيط المألوف :

فلنقرأ حديثه عن اللغة التى يتكلمها آدم :

فيقول آدم صلى الله عليه :

«أبيتم إلا عقوقا وأذية ، إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا فى الجنة ، فلما هبطت إلى الأرض ، نقل لسانى إلى السريانية ، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت ، فلما ردنى الله ، سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت علىّ العربية ، فى أى حين نظمتُ هذا الشعر فى العاجلة أم الآجلة ؟ والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة، ألا ترى قوله :

« منها خُلِقنا وإليها نعود »

فكيف أقول هذا المقال ولسانى سريانى؟[49]

(٤٩) رسالة الغفران ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢

فبقدر ما تتميز به هذه السطور بالسلاسة والوضوح، بقدر ما تتوغل الفقرة التالية فى الغموض والالتباس لولا مبادرة أبى العلاء إلى الشرح :

«ولو رأى تلك الأباريق (أبو زيد)(٥٠)
لعلم أنه كالعبد الماهن أو العُبَيد (٥١)
وأنه ما تشبب بخير، ورضى بقليل المير (٥٢)
وهزئ بقوله :

وأباريق مثل أعناق طير الـ
ماء قد جيب فوقهن خنيف (٥٣)

هيهات هذه أباريق، تحملها أباريق كأنها فى الحسن الأباريق ، فالأولى هى الأباريق المعروفة والثانية من قولهم : جارية أبريق، إذا كانت تبرق من حسنها فقال الشاعر :

وغيداء أبريق كأن رضابها
جنى النحل ممزوجا بصهباء تاجر

والثالثة من قولهم : سيف أبريق، مأخوذ من البريق قال ابن أحمر :

تقلدت إبريقا وعلقت جعبة
لتهلك حيا ذا زهاء وجامل(٥٤)

تمثل شخصية أبى العلاء المتأمل جنبا إلى جنب مع شخصية المعرى المعتز بمعرفته الواسعة للغة العربية . يريد أن يظهر بتحد وكبرياء ، على التصرف فى أساليب التعبير ، فكما نجده، يعبر بأروع تعبير وأسهله عن أدق الخلجات النفسانية واللوينات الفكرية، مستعينا بكل المعطيات البلاغية المعهودة ، نجده كذلك ينزلق مع الإغراب والغموض عن عمد وسابق إصرار. وهذا ، مثلا ما يبدو جليا فى نقده لرؤبة بن العجاج ، يقول :

«فإذا رأى (ابن القارح) ما فى (رؤبة) من الانتخاء قال :

لو سُبك رجزك ورجز أبيك، لم تخرج منه قصيدة مستحسنة (. .) فيقول رؤبة : أليس رئيسكم فى القديم : والذى ضهلت(٥٥) إليه المقاييس كان يستشهد بقولى ويجعلنى له كالإمام؟ لا فخر لك إن استشهد بكلامك فيقول وهو بالقول منطق : فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة وكعاء تحمل القطل(٥٦) إلى النار الموقـدة فى السبرة (٥٧) التى نفض عليها الشبم (٥٨) ريشه وهدم لها الشيخ عريشه ، تأخذ خشبة للوقود كيما يصل إلى الرقود، وأجَلّ أيامها أن تجنى

---

(٥٠) أبو زيد الطائى ، شاعر جاهلى أدرك الإسلام .
(٥١) الماهن : الخادم . جمعه ، مهان ومهنة .
(٥٢) المير : الطعام الذى يمتاره الإنسان .
(٥٣) الخنيف : جنس من الكتان .
(٥٤) رسالة الغفران ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
الزهاء : الكثرة .
الجامل : القطيع من الجمال .
(٥٥) ضهل إلى فلان : رجع إليه .
(٥٧) السبرة : الغداة الباردة .
(٥٦) القطيل من الشجر : المقطوع .
(٥٨) الشبم : البرد .

عساقل (٥٩) ، ومغرودا ، وتتلوا نَعَمًا مطرودا ، وإن يعلها فى المهنة (٦٠) ، لسيء العذير ، غَلُظ عن الفطن والتحذير ، وكم روى النحاة عن طفل ، ماله فى الأدب من كفل ، وعن امرأة لم تُعَد يوماً فى الدرأة (٦١) .

تقسيم رسالة الغفران :

تنقسم الرسالة إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول :

قصة خيالية تمر فى السموات العلا ، أبطالها عدة ، تختلف أصنافهم : منهم من يقيم فى الجنة ، ومنهم من يقيم فى السعير . أكبر الأبطال ورئيسهم هو ابن القارح نفسه ، اختاره المعرى بهذا الدور الرئيسى ، ليقف هو ذاته على بطلان ما روجه عن بعض الشعراء والأدباء من زندقة وإلحاد وليشعره بخطل آرائه عن الدنيا وأهلها ، ويجتمع ابن القارح فى الجنة مع الكثيرين ممن كان يتهمهم ، وبالحوار المباشر سيفهمهم ويتفاهم معهم ، وهكذا سيحبهم ويصبح من المدافعين عنهم ضد المتعنتين . وكأنه ترجمان لآراء المعرى . وحول قضايا شتى تتعلق باللغة ، والشعر ، والأدب والعقائد :

الملاحظة أنه لا يوجد بين قسمى الرسالة ارتباط وظيفى ، بل إن ما يجمعهما هو مجرد ملابسة اقتضاها شعور أبى العلاء بالإطالة فى الرحلة الأخروية وتنبهه إلى ضرورة الإجابة عن رسالة ابن القارح يقول :

«وقد أطلت فى هذا الفصل ، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة» (٦٢) إن القسم الأول كتاب قائم بذاتـــه ، وهو رواية الغفران ، أى عالم خيالى ليس فيه سوى تلميحات بالإجابة عن بعض أسئلة ابن القارح .

أما القسم الثانى فقد خصصه للرد على أسئلة مراسله نقطة بعد أخرى .

يعطى الشكل التالى تصميما مجملاً عن القسمين معا .

---

(٥٩) جمع عسقل عسقول : ضرب من الكمأة .

(٦٠) المهنة : الحذق بالخدمة والعمل المغرود ، بالضم : ضرب من الكمأة ، جمعه مغاريد – النعم المطرود ، من : طرد الإبل ضمها من نواحيها وساقها .

(٦١) رسالة الغفران : ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(٦٢) رسالة الغفران ، ص ٣٧٩ .

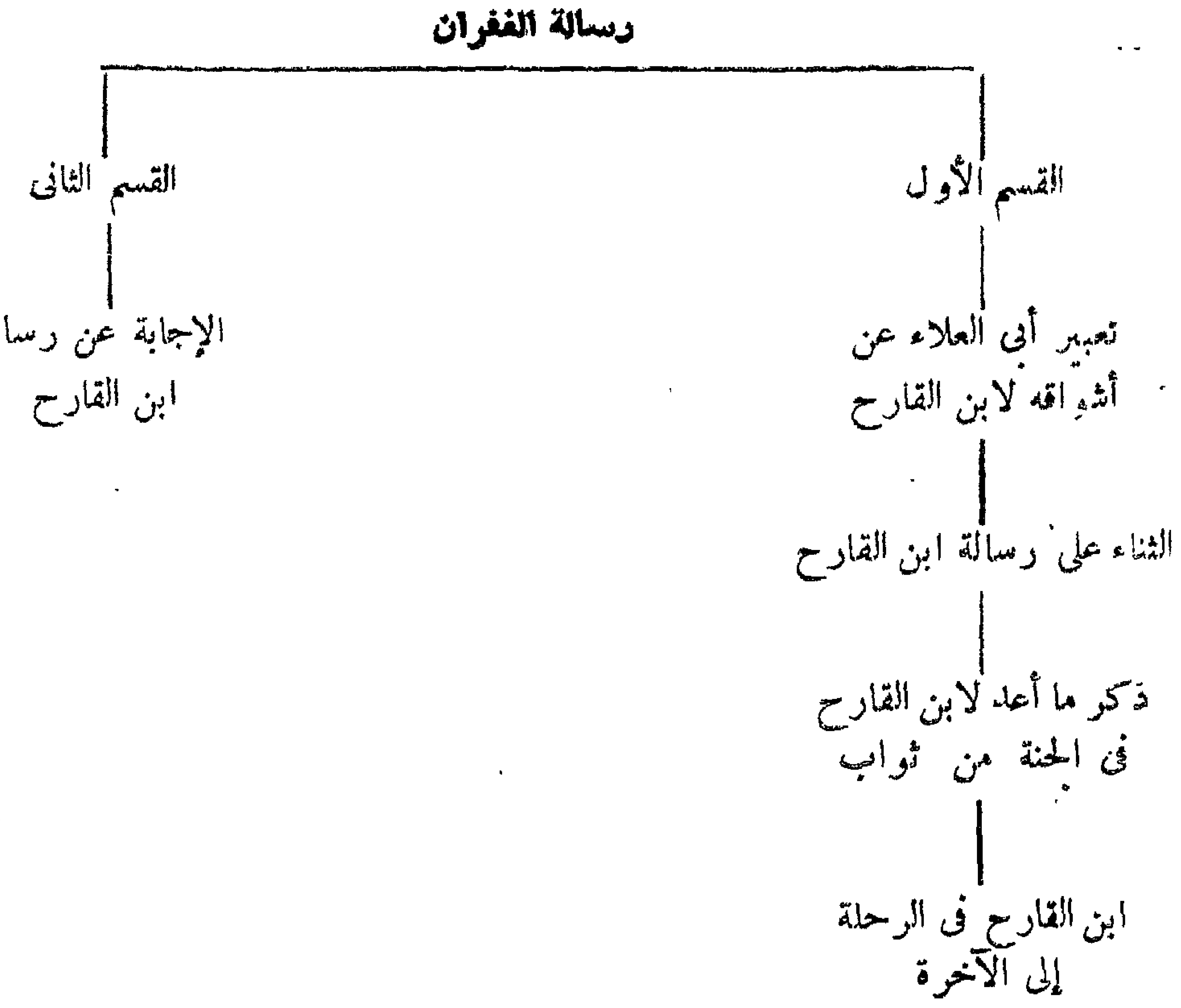

سنتتبع ، الآن ، مراحل كل قسم على حدة .

القسم الأول

مهما تكن الأسباب التى دعت أبا العلاء إلى تأليف رسالة الغفران ، فإن الإجابة على رسالة ابن القارح تظل المنطلق الأول والهدف الأساسي ،الذى رمى إليه صاحبنا ، لذا كان طبيعيا أن يستهل الجواب بالتعبير عن أشواقه وإبداء شعوره نحو مراسله قبل أن يخلص إلى التعليق على الرسالة التى وصلته وقد حرر لذلك صفحات قبل الشروع فى الرحلة إلى الجنة . يقول بعد البسملة:

« قد علم الحبر الذى نسب إليه جبرائيل، وهو فى كل الخيرات سبيل ، أن فى مسكنى حماطة (٦٣)(...) تثمر من مودة مولاى الشيخ الجليل ، كبت الله عدوه ، وأدام رواحه إلى الفضل وغدوه ما لو حملته العالية من الشجر ، لدنت إلى الأرض غصونها ، وأذيل من تلك الثمرة مصونها(٦٤) . .

ثم يبدأ وصف رسالة ابن القارح قائلا :

« وقد وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها مأجور ، إذ كانت تأمر بتقبل الشرع ، وتعيب

(٦٣) الحماطة : سواد القلب وحبته . وهى أيضا واحدة الحماط : شجر كالتين ثمره أحمر حلو منابته أجواف الجبال .

(٦٤) الرسالة ، ١٢٩ .

من ترك أصلا إلى فرع وغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها شفّع ونفع ، وقرب عند الله ورفع ، وألفيتها مفتتحة بتمجيد ، صدر عن بليغ مجيد ، وفى قدرة ربنا — جلت عظمته — أن يجعل كل حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين، ويذكره ذكر محب خدين (٦٥) ولعله سبحانه، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء ، وتكشف سجوف الظلماء (٦٦) بدليل الآية : « إليه يصعد الكلم الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعُه» (٦٧) :

«وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلُها ثابتٌ وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » (٦٨) .

وفى تلك السطور كلم كثير ، كله عند البارى — تقدّس — أثير (٦٩) .

· أتت الصفحات السابقة كديباجة امتازت بشئ غير قليل من المجاملة ، كما تقتضيه الحال ، فى رسالة إخوانية ، وتحمل فى طياتها تقديرا كبيرا من المعرى لمراسله ، فابن القارح ، كما يبدو فى نظر أبى العلاء ، صادقا كان أم مستهزئا ، رجل علم وحكمة وورع ، وبما أنه افتتح رسالته بالثناء على الخالق تعالى ، استحق نعيم الخلد فى الجنة :

« فقد غرس لمولاى الشيخ الجليل — إن شاء الله — بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظــل غاط . (٧٠) (. . .) والولدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود ، وبالمغفرة نيلت السعود ، يقولون، والله القادر على كل عزيز ، نحن وهذه الشجر صلة من الله تعالى لعلى بن منصور (٧١) نخبأ له إلى نفخ الصور » (٧٢) .

لم يكتف أبو العلاء بأن يتمنى لصالحه نعيم الجنة ، بل يسعى إلى تحقيق ذلك التمنى ولو خيالا ، ويأبى إلا أن يجعل ابن القارح

---

(٦٥) الخدين : الصديق .
(٦٦) سجوف : الواحد سجف ، الستر .
(٦٧) سورة فاطر ، من الآية ١٠ .
(٦٨) سورة إبراهيم ، الآيتان ٢٤ ، ٢٥
(٦٩) رسالة الغفران ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .
(٧٠) غاط : واسع مبسوط ومظل .
(٧١) ابن القارح مراسل أبى العلاء
(٧٢) رسالة الغفران ص ١٤١ .

يتمتع ، فعلا ، بهذا الذى صوره من نعيم الجنان ، لذا رأيناه يبوئه أعلى درجات الفردوس ويفسح له المجال للتجول هناك . لقد خطر لابن القارح أن يقوم بنزهة فى الآخرة ، فصوره لنا أبو العلاء وقد امتطى جملا قويا سريعا من جمال الجنة ، ودونما تصميم محـــدد ينطلق قاطعا أشواط هذه الجولة العجيبة ، ثم انتزع القارئ من كيانه الدنيوى ليساير ، عن كثب ، خطوات الرحلة ويشارك ابن القارح بشرف وشغف مختلف نشاطاته التى ابتدعها المؤلف ابتداعا هكذا يجعلنا نعيش ساعات طوالا فى جو الرحلة القارحية المشوقة إلى الآخرة ، كما نتمتع ، فى آن واحد ، بمحاوراته المتنوعة المشارب مع ما يربى على خمسين محاورا ما بين شاعر ولغوى ونحوى وأديب . . . بل حتى مع آدم وإبليس ، والجن ، وبعض الحيوانات ، وغير هؤلاء يقيم فى الجنة أو جهنم . فيندهش ابن القارح ، ونندهش بدورنا معه أمام خيرات الجنة وترتعش فرائصنا جميعا أمام مشاهد هول يوم الحشر وكوارث أهل النار . . . .

لقد نجحت عبقرية أبى العلاء فى تصوير مبدع للعالم الأخروى ، وبالرغم من أن أسباب الرحلة القارحية واهية ، من الجانب العقلانى ، فإنها تسجل نجاحا فائقا فى الفن الروائى . . .

إذا نحن رافقنا ابن القارح وجدنا أن الرحلة طويلة ومغرية تمر بمراحل تتوالى كما يأتى :

المرحلة الأولى :

فى الجنة : يظهر ابن القارح متربعا إحدى عرصات الجنان ، وقد اصطفى له جماعة من الأدباء وأئمة اللغة المقيمين بالجنة وهم يتبادلون أطراف الحديث حول وقائع العرب ، يقول :

« وكأنى به (ابن القارح) ، أدام الله الجمال ببقائه — إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس (. . .) وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والأصمعى ينشدهم من الشعر ما أحسن قائله كل الإحسان .

وتهش نفوسهم للعب ، فيقذفون تلك الآنية فى أنهار الرحيق »(٧٣) .

المرحلة الثانية :

بدأ الرحلة : خلال تلك الجلسة الأدبية ، يخطر لابن القارح أن يقوم بنزهة فى الجنة فنشاهده ، على جمل غريب الصفة ، يسير من غير تصميم مسبق .

ثم إنه — أدام الله تمكينه — يخطر له حديث شىء كان يسمى النزهة فى الدار الفانية ، فيركب نجيبا من نجب الجنة خلق من ياقوت

---

(٧٣) رسالة الغفران من ص ١٦٨ إلى ١٨٢

ودر (. . .) فييسر فى الجنة على غير منهج ، ومعه شىء من طعام الخلود [٧٤].

ها هو ذا يطوف بين الأشجار والأنهار محفوفا بما لذ من الطعام والشراب ، متمتعاً بجمال الحور العين ومجالس اللهو والغناء .

هناك، فى الجنة ، يصادف بعض الشعراء الجاهليين والمخضرمين ؛ ممن حظوا بلطف الله ونجوا من جهنم ، فيقيمون ندوات أدبية ولغوية فيها من المتع الفكرية ، بقــدر ما توفر من الملذات الحسية التى تشبع ، بمتعة فائقة ، كل الرغبات البشرية .

المرحلة الثالثة :

القيامة : لم يفت أبا العلاء أن يقف بنا وقفة يصف خلالها أهوال القيامة، هكذا أخذ ابن القارح يحكى (تميم بن أُبَىّ) عما لقيه من مشاق يوم القيامة، ومن انتظار فى قلق ، دام ستة أشهر ، بين هول الحشر وأمل الشفاعة [٧٥] يقول :

« أنا أقص عليك قصتى : لما نهضت أنتفض من الرَّيم ، وحضرت حرصات القيامة (. . .) ، فافتكرت ، فرأيت أمراً لاقوام لمثلى به ، ولقينى الملك الحفيظ بما زبر لى من فعل الخير ، فوجدت حسناتى قليلة كالنُّفأ فى العالم الأرمل (. . .) فلما أقمت فى الموقف زهاء شهر أو شهرين ، وخفت فى العرق من الغرق ، زينت لى النفس الكاذبة أن أنظم أبياتا فى (رضوان) خازن الجنان عملتها فى وزن :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان

ووسمتها « برضوان » . . . [٧٦] .

وقد استغرقت قصة الحشر هذه أربع عشرة صفحة ، حكى لنا فيها ابن القارح عن وقفة الحساب ، ويوم الحشر ، وماعاناه من ظمأ وتعب وحرارة . أثر ذلك ، استأنف طوافه بمرافق الجنة ، وعاد من جديد إلى حوار الشعراء والقيان ، فى مجالس شراب وغناء ورقص ، وفى ندوات شعرية ولغوية حول مآدب بالجنان .

المرحلة الرابعة :

جنة العفاريت : حرض الفضول رغبة ابن القارح فى أن يطلع على أحوال أهل الجحيم .

وفى طريقه إلى جهنم عرج على رواق العفاريت (وهم من الجن الذين آمنــوا برسالة نبى الإسلام) .

جناح العفاريت أقل بهجة وبهاء ونورا

---

(٧٤) رسالة الغفران ، ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٧٥) إنها فى الواقع، مرحلة سابقة: فابن القارح لم يدخل الجنة إلآ بعد أن مر بالحشر، غير أن المعرى بدأ بفصل أول عن الجنة ثم جعل بطل روايته يتحدث، عما عانى قبل أن يغفر له ويصبح من أهل الجنة . وهذه طريقة رائعة لم يعرفها الفن السينمائى ، ولا بعض أصناف القصة ، إلا حديثا .

(٧٦) رسالة الغفران ، ص ٢٤٨ . تستمر حكاية الحشر حتى صفحة ٢٦٢

ومتعة من جنة البشر ، ولم يفت ابن القارح أن يكلم سكانه ، ويستمع إلى أشعارهم وأخبارهم :

« ويبدو له أن يطلع إلى أهل النار فينظر إلى ماهم فيه ليعظم شكره على النعم (...) فيركب بعض دواب الجنة ويسير ، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ، ولا عليها النور الشعشعاني ، وهي ذات أدحال وغماليل فيقول لبعض الملائكة :

ما هذه ياعبد الله ؟

فيقول : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ (....) فيقول : لأعدلن إلى هؤلاء ، فلن أخلو لديهم من أعجوبة ، فيعوج عليهم ... » (٧٧) .

المرحلة الخامسة :

الجحيم : يودع ابن القارح مأوى العفاريت ليتابع سيره نحو جهنم ، فيقف قريبا من المطلع إلى النار ليتحدث إلى الخنساء :

« فيرى إبليس — لعنه الله — وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل » (٧٨) فيحادثه ثم يطرح أسئلة على بعض الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين الذين يقيمون بالنار.

فلما رأى « قلة الفوائد لديهم ، تركهم في الشقاء السرمد ، وعمد لمحله في الجنان » (٧٩).

المرحلة السادسة :

رجوع ابن القارح إلى الجنة : بعد الجولة الاستطلاعية في الجحيم ، يعود إلى مقره بالجنة ، فيصادف آدم فيتحدث معه ثم يلتقي بـ (ذات الصفا) (٨٠) .

وأخيرا يمر « بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة ، فيسأل عنها فيقال : هذه جنة الرجز » (٨١) فيحاورهم .

بعد هذا الطواف ، تنتهي الرحلة ويتكيء (ابن القارح) على مفرش من السندس ،

ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة ، وإنما هو زبرجد أو عسجد ، ويكون الباري فيه حلقا من الذهب تطيف به من كل الأشراء حتى يأخذ كل واحد من الغلمان ،

---

(٧٧) رسالة الغفران ، ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٧٨) رسالة الغفران ، ص ٣٠٩

(٧٩) رسالة الغفران ، ص ٣٦٠

(٨٠) اسم حية اشتهرت بالوفاء بالعهد ، استحقت نعيم الجنة ، نظم النابغة قصيدة عن هذه الأسطورة .

(٨١) رسالة الغفران ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤

وكل واحدة من الجوارى المشبهة بالجُمان، واحدة من تلك الحَلَق، فيحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود (. . .) وتناديه الثمرات من كل أوب وهو مستلق على الظهر :

هل لك يا أبا الحسن ؟ (٨٢) هل لك ؟ فإذا أراد عنقودا من العنب أو غيره انقضب من الشجرة بمشيئة الله ، وحملته القُدرة إلى فيه . . » (٨٣) .

يشعر أبو العلاء بأنه أطال فى وصف الرحلة القارحية ، فيختتمها قائلا :

« وقد أطلت فى هذا الفصل ، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة » (٨٤) .

بعد هذا الملخص المقتضب لمراحل القارحية التى استغرقت القسم الأول من الغفران ننتقل إلى الحديث عن القسم الثانى للرسالة.

القسم الثانى

ينقلنا أبو العلاء من الجو القصصى الممزوج بالأسطورة والمعرفة اللغوية والأدبية إلى جو المراسلات المعهودة لدى معاصريه من أدباء ولغويين .

فيتصدى فى القسم الثانى إلى الجواب عما ورد فى رسالة ابن القارح من أسئلة .

يجيب عنها واحدا واحدا . ويبدأ بالتعليق على تقدير ابن القارح له وعلى ما نقله من الآراء حول خلقه وعمله ، متواضعا تواضع النزهاء .

« وأما ما ذكره من حالى (. . .) فطالما أعطى الوثن سعودا ، فصار حضوره للجَهَلة موعودا ، فإن سررتُ بالباطل ، فشهرتُ باتخاذ النياطل ، وإن الصابر مأجور محمود ، ولا ريب أن سيُقدر لمن ظعن شِرْب مشمود .

وأحلف كيمين امرئ القيس (. . .) والأخرى التى أقسم بها زهير (. . .) إنى لمكذوب عليه كما كذبت العربُ على الغول (. . .) ويقال إننى من أهل الدين ، ولو ظهر ما وراء السَّدين ، ما اقتنع إلىّ الواصف بِسَبٍّ ، وود أن يسقينى جوزلا بشب (٨٥) .

بعد هذا ، يبدى تأسفه على ضياع رسالة أبى الفرج الزهرجى إليه :

« ووددت أن (الرسالة) وصلت إلىّ ولكن ما عدل ذلك العديل ، فبعيد ما تغنى هديل ، هلا اقتنع بنَفَقة أو توْب ، وترك الصحف عن نوب ؟ فأرب من يديه ولا اهتدى فى الليلة بفرقديه » (٨٦) .

---

(٨٢) أبو الحسن : كنية ابن القارح .
(٨٣) رسالة الغفران ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩
(٨٤) [illegible]الة الغفران ، ص ٣٧٩
(٨٥) [illegible] ، ص ٣٨٧ — ٣٩٠ . الجوزل هنا : السم . الشب : ملح معدنى قابض .

ثم يتحدث عن الأشخاص الذين جاء ذكرهم فى الرسالة القارحية ، فيدافع عن بعض المتهمين منهم ، مثل دفاعه عن « بشار » ضد تهمة الزندقة ؛ إذ يرى أبو العلاء أن بشارا :

« إنما أخذ ذلك عن غيره ، وقد روى أنه وجد فى كتبه رقعة مكتوب فيها : إنى أردت أن أهجو فلان بن فلان الهاشمى فصفحت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ (٨٧) .

ويؤكد التهمة بالنسبة لآخرين كقوله فى المصحفين :

(فغير البررة ولا المنصفين) (٨٨) .

إلى جانب ذلك ، يتطرق أبو العلاء للحديث عن بعض المذاهب والعقائد ، فيتعرض إلى مشكل الزمان والمكان ، ومشكل التناسخ ، كما يتعرض إلى مشكل مذاهب القرامطة (٨٩) والمعتزلة وأهل الحلول (٩٠) ، فيناقش أصحابها وينتقد بحدة أفكارهم ويظهر زيفها .

لم يشر صاحب الغفران هاته القضايا لمجرد ذكرها ، وبدون هدف معين ، وإنما طرقها ليشرحها ويبين موقفه منها . مثلا يتعرض لذكر المعتزلة ؛ ليؤكد أن بعضهم يستغلون الناس باسم الدين ، وأن من أئمتهم من يشرب الخمر ولا يتورع عن ارتكاب الفحش .

« كم متظاهر باعتزال ، وهو مع المخالف فى نزال ، يزعم أن ربه على الذرة يخلد فى النـــار ، بله الدرهم ، وبله الدينـــار ، وما ينفك يحتقب من المـــآثم عظائم ، ويقع بها فى أطائم . ينهمك على الجهار والفسق ، ويظعن من الأوزار الموبقة بأوفى وسق ، يقنت على رهط الإجبار ، ويسند إلى عبد الجبار ، يطيل الدأب فى النهار والليل ، ويضمر أن شيخ المعتزلة غير طاهر الردن ولا الذيل ، قد صير الجدل مصيدة ، ينظم به الغىّ قصيدة » (٩١)

ثم لا يترك المعرى الفرصة تفرته دون أن يبدى رأيه فى مشكل ، كثيرا ما اختلف

---

(٨٧) رسالة الغفران ، ص ٢٩ ؛

(٨٨) رسالة الغفران ، ص ٤١٢

(٨٩) القرامطة : طائفة باطنية يؤولون الأحكام الشرعية والآيات القرآنية تأويلات ظاهرية وتأويلات باطنية ، كانوا يقولون بالحلول ، استغلوا الدين فى القيام بدور سياسى هام. ظهرت هذه الحركة ٢٧٨ هـ/٨٩٧م وانتشرت دعوتها بالشام ، وانتصرت على جيوش الخليفة العباسى المقتدر . حل دعاتهم بافريقية (تونس حاليا) ليمهدوا السبل لقيام الدولة الفاطمية .

(٩٠) مثلا قام ، فى بغداد ، أبو جعفر السلمانى يدعى التناسخ وحلول الألوهية فيه ، فقتل سنة ٩٣٤م . انظر حديث أبى العلاء عن الحلولية (نقلناه سابقا فى الفقرة : تأثر عصر المعرى على الرسالة)

(٩١) رسالة الغفران ، ص ٤٦٥ . أطائم : جمع أطيمة وهى موقد النار .
الوسق : الحمل ، عبد الجبار : ابن احمد بن عبد الجبار الهمذانى ، كان يذهب مذهب الشافعى فى الفروع ومذاهب المعتزلة فى الأصول ، مات بالرى عام ٤١٥ هـ .

الناس فيه ، هو مشكل الحلول وشعوذة الحسين بن منصور الحلاج :

«وأدل رتب الحلاج (٩٢) أن يكون شعوذيا ، لا ثاقب الفهم ، ولا أحوذيا على أن الصوفية تعظمه ، منهم طائفة ما هى لأمره شائفة » (٩٣) .

إنها أحكام لا تصدر عن متشائم، يائس ، بل عن مفكر ملتزم ، ينتقد بجرأة ليفتضح الزيف .

لا تقف جرأة أبي العلاء عند هذا الحد من التجريح والتعديل والنقد المرضح للأوضاع ؛ فكما تعرض إلى القرامطة ، تناول بالفحص والتمحيص مواقف عبدة الله بن سبأ أحد زعماء الإسرائيليات (٩٤) . كل هذا يؤكد لنا أن أبا العلاء كان مجددا لحركة التفكير والنقد المجتمعي على عهده ، فهو ملتزم التزام من يؤمل مسبقا إصلاح المجتمع العربي الإسلامي .

من الواجب كذلك ، أن نشير إلى أن آراء المعرى لم تكن تعسفية ، أى (ضد) بل كثيرا ما كانت موضوعية أى (مع) ويظهر عدم تعسفه فى تحليله ، مثلا، للإلحاد والزندقة (اللذين كانا منتشرين جدا ، فى الوسط الإسلامى آنذاك) .

لقد بدأ رده على رسالة ابن القارح بتحليل مفهوم الزندقة بالنص على أنها شيء أصيل فى الطبيعة البشرية :

«ولم يزل الإلحاد فى بنى « آدم» على ممر الدهور ، حتى إن أصحاب السير يزعمون أن آدم ، عليه السلام ، بعث إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة ، وخوفهم من العذاب فكذبوه وردوا قوله . ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم » (٩٥) .

من ثمة جاء دفاعه عن أبي الطيب المتنبي ونفى التهم التى ألصقت به ، وذلك إحقاقا للواقع ، كما يراه :

« وكان قد طمع فى شيء قد طمع فيه من هو دونه . وإنما هى مقادير يديرها فى العالم مدير ، يظفر بها من وفق، ولا يراعُ بالمجتهد أن يخفق. وقد دلت أشياء فى ديوانه

(٩٢) جاء ، فى الفهرست لابن النديم أن الحسين بن منصور المشهور بالحلاج كان : « رجلا محتالا مشعوذا يتعاطى مذاهب الصوفية، يتحلى بألفاظهم ويدعى كل علم ، وكان صفرا من ذلك وكان(. . .)مرتكبا للعظائم يروم انقلاب الدول ،ويدعى عند أصحابه الألوهية ويقول بالحلول ، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ،ومذاهب الصوفية للعامة ، وفى تضاعيف ذلك يدعى أن الألوهية قد حلت فيه وأنه هو هو . . . » .
(انظر من ص ٢٨٣ إلى ٢٨٦ ، ط ، القاهرة ، ظهر أمر الحلاج وانتشر ذكره سنة ٢٩٩ . هـ)

(٩٣) الرسالة ، ص ٤٦٣

(٩٤) الرسالة ، ص ٤٩٣

(٩٥) الرسالة ، ص ٤٢١

أنه كان متألها، ومثل غيره من الناس متدلها، فمن ذلك قوله :

ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يخزى بريته
ولا يصدق قوما فى الذى زعموا

وإذا رجع إلى الحقائق، فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تدينا، وإنما يجعل ذلك تزينا، يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء، ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون، وفيما بطن ملحدون » (٩٦) .

كثيرة هى مواقف المعرى من القضايا الكبرى، وكلها تمتاز بميزة رئيسية :

كونها قضايا الساعة، لذلك كان الاهتمام بها التزاما . ولا تسعنا المناسبة لنأتى على جميع تلك القضايا، وإنما لذا اكتفينا بالإشارة إلى نماذج، فهى قليل من كثير .

مما سبق ممكن أن نخرج بأن رسالة الغفران تدخل فى إطار زمانى معين، وتعكس وسطا إسلاميا خاصا، هو الوسط المشرقى فلو أن المعرى عاش، فى نفس العصر، بالأندلس مثلا، لكانت اهتماماته غير تلك، ولو كان بالغرب الإسلامى، فى القرن الرابع والخامس، لما كان ليهتم بالقرامطة، ولا ليدخل فى مجادلات حول أبى الطيب المتنبى، ولما كانت كل المدن المذكورة فى رسالة الغفران.

وكذا المذاهب والأعلام . . . جميعها من المشرق، فمثلا تأتى (حلب) فى طليعة بقية الأمكنة (حيث ذكرها ١٨ مرة)، وتليها مكة (١٥ مرة) فبغداد (١٢ مرة) فالبصرة (٨ مرات) فالحيرة (٥ مرات) فدمشق (٣ مرات) وأخيرا الكوفة (مرتين) .

وهذا يدل على أن مجالس المعرى كانت تعكس مجريات المجتمع المعاصر، الأقرب فالأقرب . جاءت حلب فى الطليعة، لأن قضايا معرة النعمان كانت خاضعة لقضايا حلب . أما العواصم الأخرى، فلأنها امتازت إذ ذاك، بكونها مراكز سياسية وثقافية مشعة .

لقد كان أبو العلاء رائدا للالتزام من أجل الإصلاح المجتمعى .

فاطمة الحبابى

---

(٩٦) الرسالة، ص ٤١٨، ٤٢٠